الفقيه والسياسة في "النص السلطاني" لأعمال رضوان السيد

بومدين بوزيد(*)

يعتبـــر مشروع رضوان السيد –المعروف بكتاباته وتحقيقاته المتعددة– من المشاريع الفكرية العربية المعاصرة التي تتواصل بحثًا وإنتاجًا[1]، هذا المشروع يمكن توزيع محاوره في الاهتمامات التالية:

١. محـــور التحقيقات وتقديم الكتب التراثية، وهى تنقسم إلى قسمين، هناك مخطوطات يحققها لأول مرة، وهناك كتب تراثية أعاد تحقيقها وقراءتها ودراستها، فالتحقيق عنده هو في الأصل ليست عملية تقنية ولكنها إعادة

(*). أستاذ الفلسفة بمعهد العلوم الاجتماعية، بجامعة وهران، الجزائر.

(1). مـــن مواليـــد بترشيش جبل لبنان ١٩٤٩، حصل على الإجازة العالمية من كلية أصول الـــدين بجامعـــة الأزهر، والدكتوراه في الفلسفة من جامعة توبنغن ألمانيا سنة ١٩٧٧. أستاذ الدراسات الإسلامية بالجامعة اللبنانية منذ العام ١٩٧٨. أول عمل لرضوان السيد وزع بالجزائـــر فـــي الثمانيـــنات "الأمة والجماعة والسلطة" ١٩٨٤، كما عرف بمجلته الفكـــرية التي توقفت عن الصدور "الاجتهاد"، ومن تحقيقاته التراثية: "الأسد والغواص"، سنة ١٩٧٩، و"قوانين الوزارة وسياسة الملك" للماوردي سنة ١٩٧٩، و"نصيحة الملوك" للمـــاوردي ســـنة ١٩٩٧. كمـــا ترجم لسوذرن: "صورة الإسلام في أوربا في العصور الوسطى" سنة ١٩٨٣، ولفرانز روزنتال كتاب "مفهوم الحرية في الإسلام".

قراءة. ومن التحقيقات المتميزة تحقيقه لرسالة "الأسد والغواص"[1] وهى حكايـــة رمـــزية عربية من القرن الخامس الهجري عن علاقة المثقف بالحاكم.

٢. محـــور يـــتعلق بالموضـــوع الهاجـــسي الذي يحكم أعمال واجتهادات رضوان السيد وهو البحث في "المقالة السياسية العربية- الإسلامية" من خـــلال الفقهـــاء والعلماء سواء من خلال الماوردي وابن المقفع وابن الحداد أو من خلال الكتابة الإصلاحية الحديثة عند خير الدين التونسي أو رشيد رضا.

٣. محـــور يخص الفكر العربي الإسلامي المعاصر واستشرافاته، ويتوزع هذا المحور على الإهتمامات التالية:

- متابعة ما يسميه "الإحيائية القتالية" خصوصًا بعد أحداث ١١ سبتمبر أو كمـــا يـــسميها الـــبعض "غزوة مانهاتن"، وفي الغالب هي محاضرات ومشاركات مؤتمرية.
- دراسات عن مسائل الدين والدولة في فكرنا العربي- المعاصر وقضايا الوعي التاريخي، ومسائل حقوق الإنسان والديمقراطية، وحقوق المرأة، والمشروع القومي العربي-الوحدوي.
- متابعة الحوار الإسلامي-المسيحي، سواء من خلال التراث، أي متابعة الجدالية في نصوص ما سمي عندنا في القديم بـــ"الرد على النصاري"،

(1). صدرت عن دار الطليعة، بيروت، طـــ١، ١٩٧٨.

أو في نصوص الملل والنحل التي خصصت أبويًا للمسيحيين والطوائف الدينية الأخرى.

هكذا يكون قد حقق اثنى عشر نصًا منها سبعة نصوص في الفكر السياسي والفقـــه السياسي والأدبيات السلطانية واثنتين في علم الكلام وواحدًا في التاريخ والتراجم[1]. بالنسبة للمحورين الأولين تشعر فعلًا بجهد الباحث وسعيه الدؤوب لتقديم رؤية جديدة للنص التراثي، وهى مسألة سيكولوجية فهو يفضل البحث في النص التراثي سواء بإعادة قراءته أو دراسته خصوصًا "النص السياسي"، ليفهم بـــذلك ظاهـــرة الخلافة، والسلطان، والأمة، وبالاحترام الشخصي، وبالمتابعة المعرفية الدؤوبة واليقظة الذهنية والأخلاقية الدائمة، ولكنه عاد بعد ذلك ليركز علـــى المشروع المفهومي القديم بجوانبه المختلفة النصية والمنهجية والتاريخية وإضافة الترجمة من أجل التطوير المنهجي والمعرفي من الألمانية والإنجليزية.

بدايـــة جهـــده الفكري كان العمل على مشروع فكري بداية السبعينات من القرن الماضي، وكان حول القراءة المفهومية للفكر العربي الإسلامي الوسيط، خـــصوصًا علاقـــة الفقـــيه بالسلطة، أو ما يعرف بـــ"مرايا الأمراء"، ووجوده بألمانـــيا جعله يتأثر بالدراسات الفيلولوجية واللاهوتية الألمانية فاهتم بنصوص الفقه، السياسة، التاريخ، علم الكلام، وإعادة التحقيق والنشر.

---

(1). ومـــن المنتظـــر أن تـــصدر أو تكـــون قد صدرت له أعمال أعلن عنها منها: "البغي والخـــروج: دراسة في أحكام المعارضة والثورة في الفقه الإسلامي، و"الإعتزال في الآثـــار العقديـــة والسياسية للحرب الأهلية في الإسلام"، وتحقيقان تراثيان عن "سيرة المؤيد بالله"، وكتاب الفقيه عبد الوهاب المالكي: "الإشراف في اختلاف الفقهاء".

منهج فقه اللغة والتراث

أعتبـــر منهجـــية رضوان السيد فيلولوجية لكنها ليست تقنية باردة خاضعة للـــنص كمـــا نلاحـــظ ذلك عند المفكرين العرب في بداية تأثرهم بفقه اللغة أو المنهج الفيلولوجي في الثلاثينيات والأربعينات من القرن العشرين.

يعتبر جيل رضوان السيد جيل ثالث شاب يحاول أن ينتصر للفيلولوجية في الكـــتابة العـــربية التي هوجمت من طرف المفكرين الذين استهوتهم المنهجيات المعاصـــرة في العلوم الإنسانية، إنه يمثل جيل ما بعد إحسان عباس الذي تأثر به.

إن العودة العربية للفيلولوجيا اللألمانية في صيغتها ما قبل قرن الرومانتيكا "الـــتأويل" التاســـع عشر مهمة، ولكن الأهم هو متابعة الدراسات الإنسانية في العلـــوم الاجتماعـــية ذاتها، فديلتاي وشيلرماخر[1] وإبداعات الألمان في القرن العـــشرين الفلـــسفية كغادمير وهابرماس وبول ريكور الفرنسي، والمزج الذي حـــدث مع المدرسة التحليلية الأنجلوسكسونية والتطور الذي استفاد منه الألمان فـــي الدراسات الألسنية سمح لكثير منهم "إعادة إبداع القراءة" وبالتالي معاودة قـــراءة التـــراث الأرســـطي والأفلاطوني وفلاسفة الأنوار في قضايا السياسة

(1). هذا لا يغفله طبعًا الباحث رضوان السيد، ولكننا وددنا الإشارة أن قضايا الفهم والتأويل والتفسير بدءًا من دانهاور التيولوجي وشلير ماخر وصولًا على المدرسة النقدية الألمانية الـــيوم صـــحيح ترعرع كل ذلك على أرضية فيلولوجية-لاهوتية، ولكن حثت تطورات منهجـــية هائلـــة بعد ذلك، مازالت هناك دراسات استشراقية خاضعة للرؤية الفيلولوجية التقليدية ولكن بريقها بدأ يخفت، طبعًا هنا مهم النقد الأركوني لهذا الاستشراق.

والعدالة التي تشغل بال رضوان السيد، ولا أحسب مفكرنا العربي يصعب عليه ذلـك فإمكاناته اللغوية وتضلعه في المنهج الفيلولوجي يسمحه له ذلك بمتابعة الـتطورات الحاصـلة، صحيح قد يكون الاتفاق معه حين يصرح في مناسبات عديدة أنه لا تستهويه المنهجيات المعاصرة، خصوصًا إذا تابعنا عملية التعسف فـي الاستعمال المنهجي على النص التراثي رغم اختلاف السياقات التاريخية والحـضارية، فرضـوان يترك للنص حرية القول ولا يلي عنقه، وذهابه إلى النـصوص الـسياسية هو ذهاب إلى النص العملي، الأخلاقي-السياسي، وهو نقـص نعانيه في مكتباتنا، لقد كان الاهتمام دائمًا نظريًا فلسفيًا، وحتى إن كان الاهتمام سابقًا بالجانب العملي في النص التراثي فمن أجل تأكيد قضايا سجالية في زمننا المعاصر، كما فعل ذلك بعض الكتاب الماركسيين العرب، أو اعتبار مـا يعمل عليه رضوان نص "مرايا الأمراء" نصًا تسويغيًا للواقع، أي رؤيته، مراياالأمراء -ضمن التقسيمات الإيدولوجية المادية للتراث العربي- الإسلامي. مـن هـنا كـان إغفال هذه النصوص، وحتى الذين لهم مشاريع فكرية يرون بطـريقة كانطـية أنه لابد البدء بالجانب النظري ثم الذهاب إلى ذلك مرهقين ويكون البحث أقل جاذبية ووهجًا من العمل النظري كما هو الحال في تأليفات الجابري الخاصة بالفلسفة العملية "نقد العقل السياسي" و "نقد العقل الأخلاقي".

التحقـيق عنده هو قراءة جديدة للنص القديم ويعتبر أن التحقيق عند العرب كشأن معرفي ومنهجي وليس تقني فحسب وهذا في رأيه توفر عند كل من عبد الرحمن بدوي وإحسان عباس ومصطفى جواد[1].

يـرى رضـوان السيد أن العودة إلى التجربة السياسية العربية في الوسيط وقـضايا الـسلطة والأمـة مـن خلال الأحكام السلطانية للماوردي والسياسة الشرعية لابن تيمية ومقدمة ابن خلدون تعتبر جزءًا من فهم القضايا التي تطرح الـيوم فـي سـاحة الـسجال العقدي/السياسي، كما أنها تكشف لنا عن تأويل سياسـي/فقهي مورس من طرف فقهائنا، وقد صنف النصوص السياسية التي جمعهـا إلـى الفئات: ١.مدرسة الفقهاء، و ٢.مدرسة الآداب السلطانية، و ٣ .مدرسة المتكلمين، ثم ٤.مدرسة الفلاسفة. إن الماوردي بالنسبة لرضوان ينتمي مـضمونيًا إلـى مدرسـة الفقهاء، فإشكالية الفقهاء هي كيفية تحقق الشرعية؟ وإشـكالية الآداب السلطانية هي كيفية استمرار السلطة واستقرارها؟ وإشكالية الفلاسـفة كـيف يكون التدبير عقلانيًا أو حكيمًا؟ وإشكالية المتكلمين هي كيف تتحقق عقائدية السلطة أو سلامتها الدينية -حسب مذهب الكاتب-؟

قول الماوردي بوجوب السلطة بالشرع، يراها رضوان فكرة ليست إسلامية بـل هـي فكرة مأخوذة عن أفلاطون وأرسطو، وتبدأ بالقول أن الإنسان مدني

---

(1). المصدر نفسه، صـ٤٦ كما يمكن العودة إلى الفصول التي خصها للماوردي في كتابه: "الأمـة والجماعـة والـسلطة ١٩٨٤" ومن النصوص التي حققها مؤخرًا، "في اختلاف الفقهـاء" لعـبد الوهاب البغدادي المالكي وفي الأدب السياسي كتابان: "تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك"، و"نصيحة الملوك" المنسوب إلى الماوردي.

بالطبع، ولأن الدين يسميه المترجمون عن الإغريقية السنة أو الناموس أساس قيام الاجتماع البشري فقد استطرد الماوردي فاعتبره أساس الدولة أيضًا أو ربطه والدولة في مؤسسة واحدة.

ويتساءل من أين جاءت فكرة الماوردي؟ على اعتبار الإمامة حارسة للدين وسائسة للدنيا، فيؤكد على التفسيرين التاليين:

- إما بتأثير الإمامة عند الشيعية، كالقول بالخليفة المعصوم.
- أو أمر إبتعه الفقهاء والمتكلمون وقوفًا إلى جانب السلطة والسلطان لدوافع مختلفة.

وهنا يرى رضوان في معرض مناقشته لنصوص "مرايا الأمراء" أن الدولة الإسلامية تدين للدين، بوجودها ضمت الدولة والدين في مؤسسة يسمونها "الخلافة"، هي طريقة ساسانية، فكسرى هو الكاهن الأكبر للديانة الزرادشتية وملك الملوك في الوقت نفسه[1]، فالماوردي في كتابه "نصيحة الملوك" يقتبس من أردشير.

وقد انفرد الجويني ت ٤٧٨ه حسب السيد في المشرق بالدعوة لتوحيد الخلافة والسلطنة في السلطان، أي صاحب سلطة الأمر الواقع، ولو عدنا إلى الوراء لوجدنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استن فصل الأرض عن الغنائم هى المنقولات وقسمها كما جاء في القرآن الكريم.

---

(1). رضوان السيد: جوانب من الدراسات الإسلامية الحديثة، نشر الفنك، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، صـ ٦٠.

فمؤلفات الفقهاء في الأموال والخوارج بمثابة قراءة للتجربة التاريخية للأمة ودعوة لاستمرار الالتزام بها والاجتهاد في نطاقها[1].

إن الفقهاء يعلنون الطاعة للأئمة ما حافظوا على أمرين دينيين سياسيين الصلاة والجهاد، وهنا يكون التساؤل هل صحيح أن الشريعة كانت تحتاج للدولة من أجل تطبيقها؟ ثم هل صحيح أن الدولة أو الإمامة حرست الشرع أو الدين؟. أما نص "الأسد والغواص"، الغواص هنا زاهد حكيم رأي في أمور الدولة بعض الاضطراب فعرض على الملك أن يتعاون معه لإعادة الأمور إلى نصابها في مقابل أن يكون هو إذن الملك، ورأيه ومستشاره، في المجالات التي لا يحسن الإنفراد بالرأي فيها، ورسالة الغواص "المثقف" هي وحدة السلطة والأرض والجماعة ويتم الإتفاق على ذلك ويلعب المثقف "الفقيه" دورًا في إعادة تنظيم إدارة الدولة، والقضاء على المتمردين، وأمراء الأطراف المتغلبين، ولكن العلاقة تسوء بفعل الغيورين فيجد نفسه في السجن، ثم أطلق سراحه وابتعد عن السلطة وبقيت بينهم المسافة، ولم تكن القطيعة نهائيًا بل بقى التزاور والود، يرجع محقق النص أن هذه القصة الرمزية هى رمز للصحوة بعد الحماس الشديد في أوساط العلماء لسياسات السلاجقة الأولى تجاههم، وكانت علاقة السلطة بالعلماء قد استقرت منذ القرن الثالث الهجري على وحدة المشروعية

(1). المصدر السابق نفسه، صـ٤٢.

العليا ممثلة بالخلافة، ثم إمارة الاستيلاء أو السلطنة، وجرى انفصام في الواقع بين العلماء والسلطة من باب تقسيم العمل أو مجالات الصلاحية والاهتمام[1].

كما يقارن بين بعض آراء الماوردي وآراء ابن خلدون، فمثلاً يرى أن تفسير الفساد عندهما إما من الاختلاف على الرياسة أو التنازع في الدين؟ فابن المقفع يذكر ثلاثة أشكال ممكنة للملك -أي للسلطة- ملك الدين، وملك الحزم، وملك الهوى، ويقول الماوردي: هناك ثلاث تأسيسات ممكنة للسلطة تأسيس الدين، وتأسيس القوة، وتأسيس المال. ويتحدث ابن خلدون وشارحه ابن الأزرق عن ثلاثة أنواع للملك: الملك الديني، والملك الطبيعي، والملك السياسي[2].

إن الشكل السلبي في هذه التقسيمات هو "ملك الهوى" وعند ابن خلدون "الملك الطبيعي"، والماوردي "تأسيس المال"، ويقول ابن المقفع عن هذا الملك الأخير: "إنما هو لعب ساعة ودمار دهر". أما ملك الحزم أو ملك القوة أو ملك السياسة فهو المطلوب.

---

(1). رضوان السيد: "الأسد والغواص"، حكاية رمزية عربية من القرن الخامس الهجري، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٩٢، ص١٩.

(2). من الطريف أن رضوان في أحايين كثيرة يذكر رأي المقريزي فيما يخص مفهوم "السياسة"، فيرى أن السياسة كلمة مأخوذة من "الياسة" وهي القانون العرفي الذي وضعه جنكيز خان التتاري وتبعه مماليك مصر في ذلك، الكلمة حرفها المصريون وزادوا بأولها سيناً وهي ليست كلمة عربية. وفي الجزائر ونتيجة الحقبة الاستعمارية أستخدم مصطلح "البوليتيك" وهي اللفظة الفرنسية ولكن أصبحت ذات مدلول شعبي في اللغة وتعني: البهتان والكذب والمزايدة.